الباب الأول

رواية الشعر وشرف المعنى

الفصل الأول

الرسول صلى الله عليه وسلم ورواية الشعر

لا خلاف بين أهل الدراية والرواية في علم السُّنَّة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل بالشعر أو رواه[1] تعبيراً عن موقف عرض له، أو حكاية لحال ممثلة لغيرها وشبيهة بها، وإنما الخلاف مكمنه في حقيقة هذا الشعر وهيئته، من حيث التمام والنقص، ورعاية الوزن الشعري، أو إحداث الخلل البنائي فيه.

والحق الذي لا جدل فيه أن طبيعة الأنبياء لا تلتقي مع طبيعة الشعراء بحال، ومن الخطل في الرأي والانحراف في الفكر، والفساد في المعتقد أن يُسْلَك الشعراء في طريق الأنبياء[2]، مهما يكن سمو أرواحهم، ونبل غاياتهم، وإصابة إرهاصاتهم، وسيرورة حكمهم وأمثالهم، ونجاح أشعارهم في تشكيل وجدان الإنسان، وحفزه على التغيير في الحياة واقعاً أو طموحاً؛ لأن فرقاً شاملاً بينهما في المنهج ومصدره، والسلوك وقواعده، والهدف ومنطلقات الوصول إليه.

---

(١) دلالة هذا اللفظ على رسول الله صلى الله عليه وسلم دلالة محددة بحدود المعنى اللغوي المقيد بالحفظ والنقل، ولا يجوز أن يطلق عليه صلى الله عليه وسلم راوية، لما في هذا المصطلح من مبالغة في بنائه ودلالته، إذ يتجاوز النقل والحفظ إلى الإتقان والضبط والإسناد، وقد جاء عن أبي بكر رضي الله عنه أنه كان يقول للرسول صلى الله عليه وسلم: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما أنت بشاعر ولا راوية، ولا ينبغي لك» (انظر الألوسي: روح المعاني ٢٣/ ٤٩).

(٢) ذهب زكي مبارك إلى أن الشعر أقرب الفنون إلى أرواح الأنبياء، وأنه لا يتصور الأنبياء إلا شعراء، وإن جهلوا القوافي والأوزان؛ لأن الشعر الحق روح صرف، والنبوة الحقة شعر صراح (انظر النثر الفني ١/ ٢٠).

على أن الفرق شاسع بين منهج النبوّة الثابت المتنزل بالهداية من السماء بالوحي لاحتواء الوجود كله بحكم الله، وبين قصور تصور الشعراء وتبدل انفعالاتهم وأشواقهم بتبدل الأهواء والنزوات[1].

ومع هذا التباين القائم على فروق جوهرية، فإن كلاماً للنبوّة رُميَ على السليقة من غير صنعة أو تكلف، فاتفق مع الشعر من غير قصد أو التفات إليه، كقول الرسول صلى الله عليه وسلم[2]:

«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»

وقوله صلى الله عليه وسلم[3]: «أتيناكم أتيناكم، فحيونا نحييكم»

وليس هذا الاتفاق المصادف للشعر بشعر؛ لأنه خال من القصد إلى نظمه بوزن مخصوص وهيئة مميزة معينة، ويكاد إجماع أهل اللغة ينعقد على أن كل من قال قولاً موزوناً طبعاً أو صنعة، لا يقصد به إلى الشعر فليس منه وإن وافقه.

وإن ثمة فرقاً بين الكلمة المفردة وإن جاءت على أشطار الشعر وأوزانه، وبين الشعر الصادر عن تجربة شعورية في صورة تعبيرية موحيه، إذ ليس الوزن حدّاً صارفاً للكلام إلى هذا الجنس من التعبير، لأن كثيراً منه يقع في إنشاءات الناس من الخطب والرسائل والمحاورات، ولا يخطر ببال المتكلم أو السامع أنها شعر، فالواقع في أوزان البحور غير عزيز التأتي، حتى في كلام العامة، فلو أن رجلاً من الباعة كما يقول الجاحظ صاح: من يشتري باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات، وكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ «ومثل هذا المقدار

---

(١) انظر سيد قطب: في ظلال القرآن جـ ٢٣/ ٢٩٧٥.

(٢) البخاري: صحيح البخاري ٦/ ١٦٤ وابن كثير: مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٧٠.

وذكر عبد المطلب ليس اضطراراً لإقامة الوزن، لأن النسبة إلى الجد معروفة وشائعة فضلاً عن أن عبد المطلب كان من رسول الله بمنزلة الأب في رعايته له وتربيته وولاية أمره.

(٣) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح (الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/ ١٢٩).

من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام، وإذا جاء المقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها كان ذلك شعراً»[1].

أما كيف وقع مثل هذا الكلام الموزون في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فإن الرجز ايقاع فطري طفولي في رحلة الشعر العربي، فهو من المراحل البدائية في تطور بنية القصيدة العربية، وقد التصق إيقاعه بفن الحركة الموقعه مع حداء الإبل، التي عرفتها الحياة البدوية وتمكنت فيها تمكن العادة[2].

على أن الخليل بن أحمد ما كان يعد المشطور من الرجز شعراً[3]. وأنه من قبيل المسجّع[4].

زد على ذلك أن أهل البديع قالوا: «إذا قوي الانسجام في النثر جاءت قراءته موزونة بلا قصد؛ لقوة انسجامه، ومن ذلك ما وقع في القرآن موزوناً...»[5].

وعلى ذلك فإن معنى قول الله عز وجل: ﴿وما علّمناه الشعر وما ينبغي له﴾[6] ما جعلناه شاعراً فالشعر ليس في طبعه ولا تقتضيه جبلته، فالله سبحانه وتعالى ينفي أنه علّم الرسول صلى الله عليه وسلم بتلقي القرآن تعلم الشعر، وإن كان الله لم يُعَلِّمه فلن يَعْلَم، فما يَعْلَمُ أحد شيئاً الا ما يُعَلِّمه الله، وقد جعله الله سبحانه لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل، كما جعله أمياً لا يتهدى للخط ولا يحسنه؛ لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض[7].

وذهب الشافعي إلى أبعد من ذلك بقوله: «لا يكاد يجود شعر القرشي، وذلك لأن

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين: ١/٢٨٩.

(٢) العقاد: اللغة الشاعرة ص ١٤٦.

(٣) الزمخشري: الكشاف ٣/٣٢٩.

(٤) الزمخشري: الفائق: ٢/٥٧.

(٥) السيوطي: الإتقان ٢/٨٧.

(٦) سورة يس: آية ٦٩.

(٧) انظر: الزمخشري: ٣/٣٢٩ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٥/٥٣ وسيد قطب: في ظلال القرآن ج ٢٣/ ص ٢٩٧٥.

الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وما علّمناه الشعر وما ينبغي له﴾ ولا يكاد يجود خطه، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يكتب بدليل قوله تعالى ﴿ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾»[1].

ولا تلازم في الآية بين نفي تعلم الرسول الشعر ونفي إنشاده له، لسببين:

أولهما: أن العلم بالشعر يقضي معرفة أصنافه والإلمام بأعاريضه وقوافيه وفنونه، والتمثل بالشعر لا يرتبط بعلم الشعر فضلاً عن الشعر نفسه، بقدر ارتباطه بالحافظة المتمثلة بمحفوظها في المناسبة العارضة، ولذلك «فإن التمثل بالبيت النزر، وإصابة القافيتين في الرجز وغيره لا يوجب أن يكون قائلهما عالماً بالشعر، ولا يسمى شاعراً باتفاق العلماء»[2].

وثانيهما: أن ظاهر الآية ينفي علم الشعر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يخبر عن إنشاده له، وإلى هذا ذهب أبو اسحق الزجاج وأبو جعفر النحاس، قال الزجاج: «معنى ﴿وما علمناه الشعر﴾ أي: ما جعلناه شاعراً، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئاً من الشعر، قال النحاس: وهذا من أحسن ما قيل في هذا. وقد قيل إنما أخبر الله عز وجل أنه ما علمه الله الشعر ولم يخبر أنه لا ينشد شعراً، وهذا ظاهر الكلام»[3].

وفي حمى الأدلة السابقة فإنه لا مساس بالنبوة وعصمتها، ولا تعارض بين عدم تأتي الشعر للرسول، صلى الله عليه وسلم والتمثل بالشعر، وإذا اطمأن الباحث إلى هذا بعض اطمئنان، وقبله بعض قبول، فإن الوقوف عند حدود الأبيات المتمثل بها، يزيد الأمر وضوحاً، والرأي وثوقاً.

---

(١) الرازي: مناقب الشافعي ص ٣٠٠.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن جـ ١٥/٥٣.

(٣) المصدر نفسه جـ ١٥/٥٣ ومعاني الزجاج ٤/٢٩٤.

والأبيات التي تمثل بها الرسول صلى الله عليه وسلم أو أنشدها محدودة بعدد قليل من المواقف، غير أنها تنتظم في أشكال ثلاثة، ذات هيئات مختلفة من حيث النقص والتمام في بناء البيت الشعري ومعماره الموسيقي المنضبط في الوزن.

- ١ -

فمن الأبيات ما تمثل الرسول عليه الصلاة والسلام بمصراع منها صدراً أو عجزاً، كقوله: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد (ألا كل شيء ما خلا الله باطل)»[1] وذلك من قوله:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ

وترديده لقول الأعشى المازني (وهنَّ شَرُّ غالبٍ لمن غَلَبْ)[2] من قوله عند مقدمه على الرسول صلى الله عليه وسلم:

يا مالكَ الناس وديّان العربْ إني لقيت ذربة من الذرب
غدوت أبغيها الطعام في رجب فخلفتني بنزاع وهرب
أخْلَفتِ العهدَ ولطّت بالذنبْ وهنَّ شَرُّ غالبٍ لمن غَلبْ

وليس في رواية مصراع من البيت دون تمامه مشكل، إذا نظر إلى دقة التحديد القاصد إلى الاستئناس بموطن الفكرة التي يريدها المتمثل شاهداً أو مثالاً، أو إذا التفت إلى جانب السيرورة والذيوع في أبيات الحكمة والمثل، التي يغني الجزء منها في الدلالة على الكل؛ لما حُبِي من رقة شعرية، وسهولة أسلوبية، وشرف في

(١) رواه مسلم: صحيح مسلم ج ١٥/ ص١٢ وصحيح الجامع الصغير ١/٣٣٦ وابن هشام: السيرة: ٢/٤٩٣.

(٢) رواه عبد الله بن أحمد والطبراني وأبو يعلى والبزار وقال إن اسم الأعشى عبد الله بن الأعور، ورجالهم ثقات. قلت وله طرق أطول من هذه في النكاح في باب النشوز (الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/١٢٨).

المعنى، وإصابة للغاية والقصد. وغير بعيد عن هذا اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم لمصراع البيت في تمثله دون تمامه في البيتين السابقين، إذ (كل شيء ما خلا الله باطل)، شريف في لفظه ومعناه، وموافق للاتجاه والمعتقد في صدقه ويقينه، في حين (وكل نعيم لا محالة زائل) مباين للصدق، مجاف للقناعة؛ لديمومة نعيم الجنة.

كذلك يقال في قول الأعشى المازني، الذي أخمل عجز بيته صدره، لإصابته القصد في تركيز معناه، وبساطة تعبيره، ودقة تركيبه، فالنساء مداخل الشيطان، يضل بهن القوي القاهر لأعدائه، وهن مصائده اللأئي يغالب بهن الغالب فيجهضن غلبته، بسعة الحيلة، ومهارة الوسيلة.

ويأتنس هذان المصراعان لفظاً ومعنى ـ بناء على ما سبق ـ مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم «إن من الشعر حكمة»[1] وقوله «إن من البيان لسحراً»[2].

ويلحق بهذا الشكل من تمثل الرسول صلى الله عليه وسلم ما رواه الأموي في مغازيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يمشي بين القتلى يوم بدر وهو يقول: «نُفَلِّق هاماً» فيقول الصديق رضي الله عنه متمماً للبيت:

.... من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما[3]

قد لا يعدو الأمر في هذا المثال المجاذبة الفرحة بنصر الله، إذ أحب الرسول عليه الصلاة والسلام أن يشرك صاحبه في ذلك، وقد رأى من نشوته الغامرة بقتل أعداء الله،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب باب ٩٠ وأبو داود في كتاب الأدب رقم الباب ٨٧ والترمذي وابن ماجة في كتاب الأدب أيضاً، وأحمد في مسنده ج ٣/٤٥٦ و ج ٥/١٢٥. وانظر الهيثمي مجمع الزوائد ٨/١٢٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الطب باب ٥١ ومسلم في صحيحه كتاب الجمعة حديث رقم ٤٧ والإمام أحمد في مسنده ج ١/٢٦٩، ٢٧٣.

(٣) ابن كثير: مختصر تفيسر ابن كثير ١/١٦٩.

فكان هذا الصاحب كالعهد به دائماً، نعم المجاذب، وخير المشارك في هذا الفرح.

وقد يكون الأمر في ذلك أيضاً أن أبا بكر استشعر رغبة النبي صلى الله عليه وسلم في إسماعه تتمة البيت، بعد أن ذكر مفتاحه، وغاب عنه تمامه، لنسيان عارض، أو لجفاء متأصل للشعر في طبعه.

وبمثل ذلك كان فعله صلى الله عليه وسلم وقد استسقى بعد أن أقحط أهل المدينة فتدفق المطر غزيراً، قال ابن هشام مسنداً روايته إلى من يثق به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسرّه، قال له بعض أصحابه: كأنك يا رسول الله أردت لقوله:

وأبيض يُسْتَسْقَى الغمام بوجهه ثِمالَ اليتامى عِصْمَةً للأرامل

قال: أجل»[1].

وهو من القصيدة التي مدح فيها أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم، وهي من أبرع ما قاله من الشعر[2].

وكما دلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيت أبي طالب بالحال الموافق إيحاءً، فربما دلّ أيضاً على مقصوده من الشعر بمعناه العام دون لفظه ذكراً، فعن الشعبي عن مسروق عن عبد الله رضي الله عنه قال: لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القتلى يوم بدر مصرعين قال صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه «لو أن أبا طالب حي لعلم أن أسيافنا قد أخذت بالأنامل» قال وذلك لقول أبي طالب (من القصيدة التي مدحه بها).

كذبتم وبيت الله أن جد ما أرى لتلتبسن أسيافنا بالأنامل
وينهض قوم في الدروع إليهم نهوض الروايا في طريق حلاحل[3]

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/٢٩٢. (٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/٢٤٤.
(٣) عبد القادر الجرجاني: دلائل الإعجاز ١٣-١٤.

ومن الأبيات ما تمثل به الرسول صلى الله عليه وسلم فدخله الخلل في بنيته بتقديم وتأخير، أو لحقه فساد في إيقاعه بزحاف في إحدى تفاعليه بتحريك ساكن أو تسكين متحرك، من ذلك حديث عائشة رضي الله عنها، قال قتادة: بلغني أن عائشة قالت: لم يتمثل النبي ببيت شعر إلا بيت طرفه:

ستبـدي لك الأيام ما كنت جاهـلاً ويأتـيك بالأخـبـار من لم تزود

فقال: «ويأتيك من لم تزود بالأخبار» فقال أبو بكر: ليس هو كذلك يا رسول الله! فقال: إني لا أحسن الشعر، ولا ينبغي لي»[1].

وروى ابن هشام عن بعض أهل العلم، وأخرج ابن سعد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد أن عباس بن مرداس أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: أنت القائل أو أرأيت قولك:

فأصبح نهبي ونَهْبَ العُبَيْـ ـدِ بَيْنَ الأَقْرَعِ وَعُيَيْنَهْ

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إنما قال: بين عيينة والأقرع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هما واحد. فقال أبو بكر: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله: ما أنت بشاعر ولا راوية، ولا ينبغي لك»[2].

وأخرج ابن سعد وابن أبي حاتم عن الحسن أنه كان يتمثل بهذا البيت:

كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا

فقال أبو بكر: يا رسول الله! كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا، فقال أبو بكر أو

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٣١/٦ وأبو جعفر النحاس: معاني القرآن ٥١٥/٥، الطبري: جامع البيان ٢٣/١٩.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١٣٤٧/٤ وابن حجر: الإصابة ٢٧٢/٢، والألوسي: روح المعاني ٤٩/٢٣.

عمر: «أشهد أنك رسول الله، ما علمك الشعر، وما ينبغي لك»[1]

وتبلور هذه النماذج موقفاً للرسول صلى الله عليه وسلم من الشعر وروايته أو التمثل به، أفاد منه بعض أهل العلم حكماً فقال: «كان عليه السلام لا يقول الشعر ولا يزنه، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلاً كسر وزنه، وإنما كان يحرز المعاني فقط»[2].

ومعتمد هذا الحكم ما رواه قتادة عن عائشة رضي الله عنها، قال: بلغني أنه قيل لعائشة: «هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان أبغض الحديث إليه، غير أنه كان يتمثل ببيت أخي بني قيس فيجعل آخره أوله، وأوله آخره ويقول: ويأتيك من لم تزود بالأخبار، فقال له أبو بكر: إنه ليس هكذا، فقال نبي الله: إني والله ما أنا بشاعر، ولا ينبغي لي»[3]

ويسجل على ما سبق ملاحظتان ذواتا قيمة في مناقشة هذه الظاهرة وتفسيرها.

أولهما: ارتباط التغيير وإخلال الوزن الشعري في جانب منه بشعر قديم.

ثانيهما: القصد في كسر الوزن تقديماً وتأخيراً في الصياغة بجعل أولها آخرها وآخرها أولها.

وقبل الشروع في تفسير هذه الظاهرة تجدر الإشارة إلى أن نثر الرسول صلى الله عليه وسلم للجملة الشعرية لم يكن عن قصد ظاهر، وطلب مرصود، إذ ينازع في ذلك ويدفعه أمور عدة:

منها أن إنشاد الرسول صلى الله عليه وسلم لمصراع بيت طرفة بن العبد كان

---

(١) ابن كثير: مختصر تفسير ابن كثير ٣/١٦٩، والألوسي: روح المعاني ٢٣/٤٩ والبغدادي: خزانة الأدب ١/٢٧٣ على أن البغدادي وقبله ابن سلام جعل القصيدة التي منها هذا البيت زمن عمر، ولعمر ملاحظة على البيت (طبقات ١/١٨٧ - ١٨٨).

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ج ١٥/٥٢.

(٣) رواه أحمد في المسند ٦/٣١ وذكره السيوطي: الدر المنثور ٥/٢٦٨ والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٥/٥٣.

موزوناً مستقيم الوزن، كما تشير إلى ذلك رواية أخرى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استراث الخبر تمثل فيه ببيت طرفة:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود»[1]

وأن حديث عائشة في البغض يوازيه حديث في الحب مع عدم التأتي، فقد روى الخليل بن أحمد قال: «كان الشعر أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن لا يتأتى له»[2].

وأن القول بالقصد في كسر الوزن يؤكد معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم للأوزان والقوافي وصنعة الجملة الشعرية بأبعادها ومقتضياتها، وهو ما يتعارض مع نفي الله سبحانه وتعالى عنه في قوله: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾، ذلك أن بناء الجملة الشعرية مصوغ وفق نظام مخصوص من الوزن يتطلب ضروباً من التهذيب والصنعة في اللفظ والتركيب، تقديماً وتأخيراً وحذفاً وذكراً وتصغيراً وتكبيراً وإعراباً وبناءً وما إلى ذلك من لوازم صنعة الإيقاع واستقامة النغم الشعري، قال القرطبي: «والذي نفاه الله عن نبيه عليه السلام، إنما هو العلم بالشعر وأصنافه وأعاريضه وقوافيه...»[3].

على أننا إذا أردنا تفسيراً لهذا التغيير الحادث في الأبيات السابقة فإنا واجدوه بالنظر في جانبيّ حياة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ الجانب البشري، والجانب النبوي. قال تعالى: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾[4] ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد﴾[5] وقوله عليه الصلاة والسلام: «أنتم أعرف بأمور دنياكم».

---

(١) رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن، ورجاله رجال الصحيح (الهيثمي: مجمع الزوائد ١٢٨/٨) وانظر ابن كثير: مختصر تفسير ابن كثير ١٦٩/٣.

(٢) الزمخشري: الكشاف ٣٢٩/٣ قال الألوسي: «وما روي عن الخليل منافٍ لما سمعت من المسند ولعل الجمع بالتفصيل بين شعر وشعر» (روح المعاني ٤٨/٢٣).

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٥٢/١٥ ومعاني القرآن للزجاج ٢٩٤/٤.

(٤) سورة الإسراء: آية ٩٣.

(٥) سورة الكهف آية ١١٠ وفصلت آية ٦.

فقد نلتمس من جانبه البشري ما يعتري حافظة البشر من النسيان الجائز على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما لا يخل بالتبليغ، لأن فيه العصمة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يقرأ في المسجد، فقال: يرحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتهن من سورة كذا وكذا، وفي رواية كنت أنسيتها»[1].

فليس بمستغرب نسيانه عليه الصلاة والسلام لما حفظ من الشعر، خاصة أنه لم يتعهده بعناية أو رعاية، فلم يؤثر عنه مجالسة أهله في الجاهلية، إذ كان له شأن يغنيه من التأمل والتدبر في الكون وخالقه، والحياة ومدبر أمرها، فلا تعدو هذه الأبيات بقية من محفوظ عارض وقع في خاطره، فلم يأخذ نفسه بسلامة روايته، أو معاناة دقته، فتسرب إليه الخلل بتقديم وتأخير مع بقاء سلامة المعنى.

وما دامت حافظته حافظة بشرية، فقد أمسكت ببعض الأبيات المعدودة المحدودة، إما لشأنها الخاص في موافقة الميل والاتجاه المتدبر في التوحيد، كأبيات قس بن ساعدة الإيادي التي ذيّل بها خطبته، يقول الجاحظ: «ولإياد وتميم خصلة ليست لأحد من العرب؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي روى كلام قس بن ساعدة الإيادي، وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش والعرب، وهو الذي عجب حسنه، وأظهر من تصويبه، وهذا إسناد تعجز عنه الأماني، وتنقطع دونه الآمال، وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات باب شهادة الأعمى وأمره ونكاحه باب رقم ١١ حديث رقم ٢٦٥٥ وفي صحيح مسلم بألفاظ مقاربه.

ولا ينبغي أن يفهم من هذا النسيان التشكيك في جمع القرآن، فهذه الآيات كان قد حفظها الرسول صلى الله عليه وسلم واستكتبها كتّاب الوحي، وحفظها الصحابة رضي الله عنهم في صدورهم، وبلغ حفظها وكتابتها مبلغ التواتر، فنسيان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يؤثر في دقة جمع القرآن، وهذا غاية ما يدل عليه الحديث، ولذلك فقراءة الرجل وهو أحد الحفظة كانت مذكرة للرسول صلى الله عليه وسلم (انظر مناع القطان: مباحث في علوم القرآن ١٣٥).

ولإظهاره معنى الاخلاص، وإيمانه بالبعث»[1].

وإما لأنها قول صائب مصوغ صوغ الحكمة التي ندّت عن الجاهليين، ومثل هذا اللون من الشعر يحظى بعلوق في النفس لتمثيله بعض أنشطة الحياة الإنسانية، وهو

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٥٢ وذكر الباقلاني (إعجاز القرآن ١٥١ ـ ١٥٢) أن الرسول الكريم روى النثر وقال: أيكم يروي شعره فأنشدوه...

وفي رواية أخرى: أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرو الأبيات لأنه لم يحفظها، وقد حفظها أبو بكر رضي الله عنه، فعن ابن عباس رضي الله عنه أن الجارود قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفسر من الرسول الكريم عن قس بن ساعدة الأيادي فقال له: أول من تأله من العرب... فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: على رسلك يا جارود، فلست أنساه في سوق عكاظ على جمل أورق، وهو يتكلم بكلام ما أظن أني أحفظه، فقال أبو بكر: يا رسول الله فإني أحفظه كنت حاضراً في ذلك اليوم، فقال في خطبته... وأنشد الأبيات:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ... ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... تمضي الأكابر والأصاغر
أيقنت أني لا محالة ... حيث صار القوم صائر

انظر طرق رواية الحديث (البيهقي: دلائل النبوة ٤٥٤ ـ ٤٦٦) وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٤١٨ ـ ٤١٩.

ولا تناكر بين هذه الرواية وما ذهب إليه الباحث من أن نسيان الرسول صلى الله عليه وسلم مرتبط بشعر قديم طال العهد بينه وبين سماعه أو أحداثه.

ويقول ابن الأثير: «حديث قس بن ساعدة على كثرة رواياته واختلاف طرقه مشهور متداول بين رواة الحديث وأئمته، وقد ذكر بعض الحفاظ أنه موضوع...» (منال الطالب في شرح طوال الغرائب ج ١/١١٩).

وقد ذكره الحافظ ابن كثير (السيرة النبوية ١/١٤١ ـ ١٥٣) من طرق عدة وقال أصله مشهور وهذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على إثبات أصل القصة ١/١٥٢.

في أغلبه نتاج العقل والفطرة، وبعض ذلك مؤتلف مع الإسلام والتوحيد في المفهوم العام.

وفي جانبه النبوي الذي فيه العصمة والوحي، قد ندرك تعليل الجملة الشعرية في الجفوة والتناكر بين النبوّة والشعر طبعاً وشرعاً، فالله سبحانه وتعالى الذي هيأه للوحي والرسالة، باعد بينه وبين تمكن الشعر من نفسه، على الرغم من أن الشعر كان وفيراً في بني عبد المطلب رجالاً ونساء حاشا النبي صلى الله عليه وسلم[1]، فما يليق به، وما يصلح له أن ينشىء شعراً أو يحدثه، ولم يهبه الله كذلك طبيعة شاعرة تحفز فيه ميلاً إلى حفظه، ولم يكسبه استعداداً يبعث فيه حرصاً على روايته والتدقيق في نقله، إذ من شأن الميل والاستعداد ملء تجاويف النفس ومسارب الخاطر بمحفوظ يجد نفاذه في تعبيره علامات دالة على تأثر شعري بَيِّن المصدر، فقد يعدي ذلك على غيره

---

(١) للشعر جذور ورسوخ في أُسرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وله امتداد وفروع كذلك في أُسرة عبد المطلب من أولاده وأحفاده وإخوانه وأعمامه وأزواجه وزوجاته وبناته إلى جانب أبيه وأمه، وهؤلاء مجموعة تزيد في عددها على خمسين شاعراً وشاعرة مما جعل صاحب العمدة يقول: «وليس من بني عبد المطلب رجالاً ونساء من لم يقل الشعر، حاشا النبي صلى الله عليه وسلم» (١/٣٦).

وفيهم شعراء معدودون متميزون بالشاعرية مثل: الزبير بن عبد المطلب، والعباس بن عبد المطلب، وأبو طالب بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهم مخصوصون في شعرهم بشرف المعنى يقول ابن ظفر: «ولم يكن أولاد عبد المطلب يقولون الخنا من الشعر» [أنباء نجباء الأبناء ص ٢٥].

ويذكر ابن حبيب في المنمق ص ٤٤٢ هؤلاء الأبناء بالقول: «وأولاد عبد المطلب لا أفصح ولا أرجح منهم، فلا بد أن يكون هؤلاء الأولاد والأحفاد قد أخذوا عن عبد المطلب وغير عبد المطلب الفصاحة وهذا الشعر وتأثروا به في شعره وفصاحته».

(انظر: طبقات فحول الشعراء ١/٢٣٣، ابن دريد: الاشتقاق ص ٤٧ ابن هشام: السيرة ١/١٦٩ الحصري: زهر الآداب ١/٦٥، محمد بن حبيب: المنمق في أخبار قريش ص ٥٢).

من المحفوظ، أو يعزز الظن «أنه قوي على القرآن بما في طبعه من القوة على الشعر»[1].

ولا يتنافى حفظ العدد المعدود من الأبيات مما سبق بيان اتجاهه الفكري مع هذا الجانب النبوي في حياته صلى الله عليه وسلم؛ لواقعية التهيئة المتسقة والميل العربي الفطري إلى الشعر على وجه العموم، وتميّز التربية في مفارقة بني قومه على وجه الخصوص.

ومن نافل القول أن نؤكد أن في تلاحم هذين البعدين كان تكامل منهجه صلى الله عليه وسلم بشراً نبيّا، الذي حيّر الجاهليين وأثار دهشتهم، فحفزهم على الاستنكار والاستغراب، كيف يكون الرسول المبعوث إليهم شخصية بشرية بسيطة لا أسرار فيها، مكشوفة لا ألغاز حولها؟! وقد ارتبط كثير من المعتقدات الهابطة لديهم بالسحر والخرافة والأساطير.

وعلى ذلك فلا تناقض بين الحب مع عدم التأني فيما رواه الخليل بن أحمد والبغض مع تغيير الشعر المروي بالتقديم والتأخير فيما روته عائشة رضي الله عنها، إذا علقنا الإحساس الأول «الحب» بالجانب البشري، وربطنا الإحساس الثاني «البغض» بالجانب النبوي.

ولما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مبرّءاً؛ بشراً ونبياً من الطبيعة الشعرية، إنشاءً ونقلاً، فإننا نستطيع أن ندرك لمسات من بشريته، وسمات من فكر نبوته فيما قدّم وأخر فيما سبق من أبيات.

فقد جاء التقديم والتأخير في مصراع بيت طرفة بن العبد «ويأتيك من لم تزود بالأخبار» متساوقاً مع الفطرة الناطقة للجملة في ترتيبها العفوي تبعاً لأحداثها في الذهن، وبنائها النثري في المحادثة والخطاب، فترتيب الجملة البسيطة التكوين البدء بالفعل واتباعه الفاعل ثم القيد، أو بمعنى آخر يتقدم المسند فالمسند إليه ثم

---

(١) ابن رشيق: العمدة ١/١٥.

القيد، وطرفة بن العبـد دعاه داع من النظم والوزن والإيقاع إلى تأخير ما حقه التقديم (المسند إليه على القيد). فما على الرسول صلى الله عليه وسلم من سبيل وقد قصد إصـابـة المعنى، أن يجري الجملة في مضمارها البسيط التكوين، بأداء بعيد عن العناية بضوابط الصنعة ومقاصد الإيقاع.

وكذلك فإن تقديم الأقرع بن حابس على عيينة في إنشاد الرسول صلى الله عليه وسلم لقول العباس بن مرداس:

أتـجـعـلُ نَهْـبـي ونـهـبَ الـعُـبَـيْـ ـدِ بين عُيَيْنَـةَ والأقـرعِ

لا يخل بالإفهام والمعنى، إذ أن التساؤل المتعجب واقع عليهما، فهما واحد كما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام، فإذا أضفنا إلى ذلك بعض المؤثرات الخارجية المرافقة للبيت ترجح لدينا بأن الإنشاد أو الرواية كانت بالمعنى المترتب في الذهن وليس باللفظ الموزون بالشعر.

فالأقرع مقدم على عيينة في التعداد القبلي، فقد قدم عليه في إبداء الرأي في سبايا هوازن، حين طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من الناس أن يتكلموا فيها.

وقـد ردّ عليه الصـلاة والسلام نصيبه ونصيب عبد المطلب، فتكّلم الأقرع بن حابس فقال: «أما أنا وبنو تميم فلا» وتكلّم عيينة بن حصن تالياً له فقال: «أما أنا وبنو فزارة فلا»[1] فلعل ذلك ظل ماثلاً بترتيبه الحدثي في ذهن الرسول فجاءت روايته ممثلة له، متناسبة مع أحداثه.

زد على ذلك أن الذي نطق به الرسول صلى الله عليه وسلم وجرى على لسانه في هذا البيت هو الأفصح في تنزيل الكلام وترتيبه، ذلك أن القَبْليَّة في المفاضلة بين الناس لإنزالهم منازلهم اللائقة بهم، تكون بالرتبة وبالفضل وبغيرهما، أما قَبْليَّة الرتبة بين الأقرع وعيينة، فإن الأقرع من خِنْدِف، ثم من بني تميم، فهو أقرب إلى النبي

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/١٣٤١.

صلى الله عليه وسلم من عيينة، فترتب في الذكر قبله، وأما قبليَّة الفضل فإن الأقرع حسن إسلامه، وعيينة لم يزل معدوداً في أهل الجفاء، حتى ارتد وآمن بطليحة ثم أخذ أسيراً[1].

أما إن صح إنشاد الرسول صلى الله عليه وسلم «كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا» من بيت سحيم عبد بني الحسحاس.

عميرة ودّع إن تجهزت غازياً كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فإن التصور الإسلامي هو المرتب لهذه الجملة، وهو ترتيب تتطابق فيه قناعة الذهن (المعنى) مع التزام النطق (اللفظ)، فيأتي التعبير عن ذلك بعفوية صادقة؛ لأن الإنسان إنما يرعوي بالإسلام عن غيّه، فهو الأصل الذي يتفرع عنه الشيب دليلاً على تبدل الحال، ونذيراً بقرب المآل.

ولسنا بحاجة ـ مع هذا التفسير لما سبق من أبيات ـ إلى قبول القول الذي يذهب إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم «كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى المقصود، فكان يقول مثلاً (ويأتيك بالأخبار من لم تزود)، لأنها لا تقبل التبديل مع بقاء المعنى، ولكنه إذا نطق بقول سحيم عبد بني الحسحاس (كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا) فقال كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا، قدّم كلمة الإسلام لينفي ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد»[2] لأن هذا القول تعوزه الدقة من ناحيتين:

أولاً: شمول الرواية، إذ أن المثالين؛ بيت طرفة وبيت سحيم وغيرهما، قدّم فيهما الرسول صلى الله عليه وسلم وأخّر، ولم يختل المعنى فيها على ما تقدم بيانه.

---

(١) السهيلي: الروض الأنف ج ٧/٢٨٧.

(٢) العقاد: عبقرية محمد ص ٨٥.

ثانياً: القصـد، فالتمكن من التبـديل لنفي الشاعرية يقضي بأن يبدل الرسول عليه الصلاة والسلام من كل الشعر الذي أنشده أو تمثل به، وهو ما ينقضه إنشاده لأبيات تامـة الوزن، فضلاً عن أن التمكن في التبديل مع بقاء المعنى يلصق بالرسول الحسُّ الشاعر أو الطبيعة الشاعرة التي حرص القرآن والنبي نفسه على نفيها.

على أن كسر الوزن لا يعيب الرسول صلى الله عليه وسلم تماماً كما لم يعبه أنه أمي لا يهتـدي لمعرفة الخط ولا يحسنه، لتكون الحجة أبهر وأقهر، والدلالة أقوى وأظهـر، ولتكون أدحض للجاحد، وأقمع للمعاند، وأرد لطالب الشبهة، وأمنع في ارتفاع الريبة، فسبيل المنع ليس سبيل التنزيه والكراهة[1].

وفي ضوء ما سبق أيضاً فليس مقبولاً رفض كسر رسول الله صلى الله عليه وسلم للشعر بدعوى تناقضها مع الفصاحة والبلاغة لأن «العيب كل العيب أن تنطق بيتاً من الشعر فلا تقيمه وأنت رجل كسائر الرجال، فكيف إذا كنت أفصح البلغاء»[2] إذ أن هذا الـرأي يجعـل الفصـاحة والبلاغة والشعر من باب واحد، والحال أن الفصاحة والبلاغة تُحَصَّل بالمرانة أكثر من تحصلها بالطبع، في حين أن الشعر قيامه بالطبع والفطرة قبل الممارسة والمرانة، فالبلاغة طريقها من غير طريق الشعر عند التدقيق في الاستعداد.

ومن هنا فإن إقامة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزن بعض الأبيات إنما كان من إجادة الحافظة وطريق إمساكها بالصحة والدقة، وليس من غلبة الفطرة والطبع، وما كسر وزنه في رواية الرسول صلى الله عليه وسلم لبعض الأبيات إنما متعلقة بما يعرض للحافظة من عارض السهو والنسيان وعدم التمكن من الحفظ والضبط.

---

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص ٢٠.

(٢) د. رجب البيومي: البيان النبوي ص ٨٥.

- ٣ -

الأبعاد الوظيفية لتمثل الرسول صلى الله عليه وسلم بالشعر

وتَمَثُّلُ الرسول صلى الله عليه وسلم بالأبيات الشعرية التامة الوزن يمسّ أبعاداً وظيفيّة لرواية الشعر، إذ أن الفاحص للأبيات التي أنشدها عليه السلام من غير تزحيف أو تقديم وتأخير يخل بوزنها، يجدها تنتظم في اتجاه فكري مطرد يقوم على أساسين:

١ـ المعنى الخلقي ٢ـ الشعر التعبدي

١ـ فمن المعاني الخلقية تمثله عليه الصلاة والسلام بقول عبد الله بن رواحة:

يبيتُ يجافي جَنْبَهُ عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وهو جزء من مجموعة الأبيات التي حدث فيها ابن رواحة رضي الله عنه عن حقيقة النبوّة قولاً وعملاً، والممثلة بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقد خلع الرسول على أبيات ابن رواحة هذه شرفاً إذ قدّم لها، وقد أنشده إياها، بقوله: «إن أخاً لكم لا يقول الرَّفث»[1].

وبمنهج المسلم الواصل آماله وأشواقه وآلامه بالله، وبطمأنينة المؤمن بما أعد الله من جزاء أوفى للمعاناة في سبيله مهما يكن شأنها صغيراً، جاء تمثل الرسول صلى الله عليه وسلم ببيت عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه[2]:

---

(١) رواه البخاري: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٥٤٦/١٠ وابن حجر العسقلاني: تغليق التعليق ١٠٧/٥ ـ ١٠٨.

(٢) روى البخاري هذا البيت حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم برقم ٦١٤٦، إلا أن الطبري وغيره جعله مما تمثل به الرسول في حالته إذ أصيبت إصبعه في دخول غار، وقد أوردهما ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس لعبد الله بن رواحة في معركة مؤتة. (انظر ابن حجر: فتح الباري ٥٤١/١٠)، على أن هذين الشطرين متسقان في الوزن، منتظمان في السياق، مؤتلفان مع النسق التعبيري لأبيات عبد الله بن رواحة، فهما إما من التضمين في شعر ابن رواحة وإما أن الرسول صلى الله عليه وسلم تمثل بهما، خاصة أن الغار الذي عثر فيه الرسول جاء منكراً مجرداً =

هل أنت إلا إصبع دَمِيْتِ   وفي سبيل الله ما لقيت

وأخرج الخطيب في التاريخ عن عائشة رضي الله عنها تَمَثُّل الرسول بقول الشاعر[1]:

تفاءل بما تهوى تكن، فلقلما   يقال لشيء كان إلا تحققا

ذلك أن التفاؤل من حسن الظن، إذ أنه المعادل الإيجابي المضاد للتشاؤم، فهو لون من ألوان التوكل، وصورة من صور الإيمان الذي يحقق به المرء أحلامه، ولا يجانب به إصابة أمانيه، خاصة إذا أحلّ المرء الماضي في رؤيته المستقبلية محلاً مُبِيْنَاً للسببيّة.

وفي قول سحيم عبد بني الحسحاس:

الحمد لله حمداً لا انقطاع له   فليس إحسانه عنا بمقطوع

الذي قيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم تمثل به[2]، إصابة في تصوير حال المسلم في ديمومة شكره لنعم الله التي لا تعد ولا تحصى.

ومحور الأبيات السابقة شرف المعنى بمفهومه الخلقي من الصدق والفائدة وإصابة المعنى، ودقة تصويره الحال، ولعلها لذلك وجدت إلى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم سبيلاً من الرضى فتمثل بها.

= من تحديد الزمن (انظر مصطفى عليان: مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي ص ٣٠-٣١)، وديوان عبد الله بن رواحة ص ١٥٤.

(١) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٠/٥٤١.

وأخرجه البيهقي في سننه بسند فيه مجهول عن عائشة قالت: «ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً (تفاءل بما تهوى...) قالت: ولم يقل تحققاً لئلا يعربه فيصير شعراً» (روح المعاني ٢٣/٤٩).

(٢) قال ابن حبيب: «أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم قول سحيم... فقال أحسن وصدق والله يشكر مثل هذا، ولئن سدد وقارب إنه لمن أهل الجنة» (البغدادي: خزانة الأدب ١/٢٧٣).

وإذا ارتضينا هذا الفهم فإن قبولاً ورفضاً يتنازعان ما يروى: «أن الرسول صلى الله عليه وسلم أنشد قول أمية بن أبي الصلت:

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث يرصد

فقال الرسول: صدق، هكذا صفة حملة العرش»[1] وزاد الجاحظ ذلك بياناً وتأكيداً حين قال: «فقد جاء في الخبر أن من الملائكة من هو في صورة الرجال، ومنهم من هو في صورة الثيران، ومنهم من هو في صورة النسور»[2].

وفي شرح ديوان أمية لمحمد بن حبيب ت (٢٤٥هـ) «ويقال إن الذي في صورة رجل هو الذي يشفع لبني آدم في أرزاقهم، وأما الذي في صورة نسر فهو الذي يشفع للطير في أرزاقهم، وبلغني أن لكل ملك منهم أربعة وجوه؛ وجه رجل، ووجه ثور، ووجه أسد، ووجه نسر»[3].

وضعّف الهيثمي الحديث، لأن في سنده محمد بن يسار بن اسحق فقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، ورجاله ثقات، إلا أن ابن اسحق مدلس»[4].

غير أن ابن كثير يقوّي الحديث ويرفع من درجة إسناده على الرغم من وجود ابن اسحق فيه، إذ يقول: «فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد، حدثنا عبد الله بن محمد هو أبو بكر ابن أبي شيبة، حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن اسحق عن يعقوب بن عقبة عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق أمية يعني ابن أبي الصلت في بيتين من شعره. . . . فإنه حديث صحيح الإسناد، رجاله ثقات»[5].

---

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ١/١٢٩ وابن كثير: البداية والنهاية ١/١٢.

(٢) الجاحظ: الحيوان ٢/٢٢٢.

(٣) البغدادي: خزانة الأدب ١/٢٤٨ ط الهيئة المصرية.

(٤) الهيثمي: مجمع الزوائد ٨/١٢٧. (٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١/١٢.

وابن اسحق في روايته صدوق، يدلس، رمي بالتشيع والقدر، وروايته مقبولة، وحديثه حسن إذا صرح بالسماع (سمعت، حدثنا)[1].

ومضمون بيت أمية بن أبي الصلت مناقض في ظاهره لقول الله تعالى في صفة العرش: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية﴾[2]، ولحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه الإمام أحمد «حدثنا عبد الرزاق، حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب بن خالد، حدثني سماك بن حرب، عن عبد الله بن عميرة، عن الأحنف بن قيس، عن عباس بن عبد المطلب، قال كنا جلوساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبطحاء، فمرت سحابة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتدرون ما هذا، قال: قلنا السحاب، قال: والمزن، قال: قلنا والمزن، قال: والعنان، قال: قلنا الله ورسوله أعلم، قال بينهما مسيرة خمسمائة سنة وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض. ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض، ثم على ظهورهن العرش، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله فوق ذلك، وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء»[3].

فحملَة العرش ثمانية كما تدل عليهم الآية وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقتضي بيت أمية بن أبي الصلت أن حملة العرش أربعة، وفي هذا تعارض «اللهم أن يقال إن إثبات هؤلاء الأربعة على هذه الصفات لا ينفي ما عداهم، والله أعلم»[4].

وذهب محمد بن حبيب في تفسير البيت إلى أن حملة العرش ثمانية، رجل وثور ونسر وأسد، هذه أربعة، وأربعة أخرى، فأما اليوم فهم أربعة، فإذا كان يوم القيامة

---

(١) انظر ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب ج ٩/ ٣٨-٤٦ وتقريب التهذيب ٤٦٧.

(٢) سورة الحاقة آية ١٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ١٠، ورواه أبو داود وابن ماجه والترمذي بإسناد نحوه، وقال الترمذي حديث حسن.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ١٢.

أيدوا بأربعة أخرى، فذلك قوله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية﴾[1].

على أن رواية ابن عبد ربه تقول عن ابن عباس: «أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم أبياتاً لأمية بن أبي الصلت يذكر فيها حملة العرش:

زحل ونور تحت رجل يمينه ... والنَّسر للأخرى وليث يرصد
والشمس تطلع كل آخر ليلة ... فجراً ويصبح لونها يتوقد
تبدو فما تبدو لهم في وقتها ... الا مُعذبةً والا تجلد

فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم كالمصدق له»[2].

٢ـ وبالشعر التعبدي جاء تمثل الرسول صلى الله عليه وسلم بالأبيات التامة التي مدارها الثناء على الله بالحمد والشكر، والتضرع له بالدعاء أن يهب المؤمنين الثبات والفلاح والنصر على أعداء الله.

ففي بناء المسجد النبوي بالمدينة المنورة كان ابن رواحة رضي الله تعالى عنه يرتجز مصوراً حقيقة المؤمن، التي هي قرآن متحرك قياماً وقعوداً، وسلوكاً وعملاً، داعياً له بالفلاح فيقول:

أفلحَ مَنْ يُعَالجُ المَسَاجدا

فيقولها صلى الله عليه وسلم، فيقول ابن رواحة:

ويقرأ القرآن قائماً وقاعدا

فيقولها صلى الله عليه وسلم[3].

---

(١) البغدادي: خزانة الأدب ١/٢٤٨ طـ الهيئة المصرية.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٦/١١٠.

(٣) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٠/٥٤١، وانظر ديوان عبد الله بن رواحة ص١٢٩.
وفي سيرة هشام أن علياً ارتجز بالقول:

لا يستوي من يَعْمرُ المساجدا ... يدأبُ فيها قائماً وقاعداً
ومن يرى عن الغبار حائدا

قال ابن هشام: سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر عن هذا الرجز، فقالوا بلغنا أن علي بن =

وتمثل صلى الله عليه وسلم بالرجز التالي[1]:

لاهـمَّ إن الأجـرَ أجـرُ الآخـرة فارحـم الأنـصـار والـمـهـاجـرة

إقراراً وإيماناً أن أجر الآخرة يهون بجانبه كل عناء ومشقة، ودعاء إلى الله عز وجل أن يشمل برحمته هذين الفريقين من الأنصار والمهاجرين اللذين تلاحما في بناء مسجده، وفي النهوض بعبء الدعوة الإسلامية.

وكان يتمثل عليه الصلاة والسلام فيقول[2]:

هذا الحِمـالُ لا حِمـالُ خيبـرْ هذا أبـر ربـنـا وأطـهـر

تعظيماً لرزق الله وتفريداً لثمر الجنّة وسمّواً به عن ثمار الأرض (ثمار خيبر)[3]، بالبر والطهر؛ لأنه فضل البَرِّ الرَّحيم.

وفي غزوة الأحزاب كان الرسول صلى الله عليه وسلم ينقل التراب، وقد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول من شعر ابن رواحة[4]:

تالله لولا أنـت ما اهـتـدَيْنـا ولا تَصَـدَّقـنـا ولا صَلَّيْنَـا
فَأَنْـزِلَـنْ سكـيـنـةً علينـا وثَـبِّـتِ الأَقـدامَ إن لاقـينـا
إن الأُلـى قد بغـوا علينـا وإن أرادوا فتـنـة أبـينـا

= أبي طالب ارتجز به، فلا يدري أهو قائله أم غيره ٢/٥٢٣ طـ دار الفكر ـ القاهرة.

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/٥٢٢ وصحيح مسلم ١٢/١٧٣ وديوان عبد الله بن رواحة ص١٤١.

(٢) البخاري: صحيح البخاري ٧/٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٣) انظر الفيروز آبادي: القاموس المحيط (مادة حمل). ج ٢/٣٧٢.

(٤) البخاري: صحيح البخاري ٦/١٦١ وصحيح مسلم مع اختلاف في رواية الأبيات ج١٢/١٧١. وانظر الحديث وتخريجه في جزء من أحاديث الشعر للحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي المقدسي تحقيق إحسان عبد المنان الجبالي ٤٥، ٤٦، ٤٧.

والأبيات فيها من الشعر التعبدي الثناء على الله عز وجل بما هو أهله؛ إذ له الفضل والمنة في هذه الهداية، والدعاء بأن يشمل الله المسلمين بعنايته في السكينة والطمأنينة والثبات عند لقاء الأعداء، والحماسة في الالتزام بموقف الإسلام من رفض الفتنة ودفع البغي والظلم.

مما سبق يمكن الاطمئنان إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تمثل بشعر تام في أحوال متباينة، إذا أخذنا بمجموع المعايير السابقة، وعدم تناقضها مع قوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾.

وإذا جاز لنا أن نأخذ العدد أو الكم معياراً مرجحاً في هذا المجال، فإن عدد الأبيات التي تمثل بها الرسول صلى الله عليه وسلم تامة يفوق عدد الأبيات التي قدم وأخرّ فيها، أو أنشد مصراعاً منها، مما يحمل على عدم الالتفات إلى الرأي الذي يذهب إلى أن إنشاد الرسول لهذه الأبيات لم يكن مُعْرَباً، أو أنه لا يُعْرَف مدى التزامه عليه السلام بالإنشاد المراعي لصحة الوزن أو القصد إلى كسره بالتزحيف؛ لأنها علل واهية لا دليل عليها[1].

والأبيات التامة السابقة التي أنشدها الرسول صلى الله عليه وسلم بجانبيها وأساسيها الخلقي والتعبدي هي من شعر الدعوة الملتصق بأحداثها، المواكب لنمائها، فلعل في إتمام الرسول لها ما يرجح جانباً من الفهم الذي ذهب إليه الباحث في شأن ما كسر وزنه من أبيات، وهو أن ذلك من فعل نسيان ألمّ بالذاكرة؛ لتباعد العهد بها، أو لأن قيمها لا ترقى في شأنها إلى مستوى هذا الشعر الدعوي في مضمونه وفكره.

ويوجّه موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من التمثل بالأبيات التامة السابقة إلى البعد الوظيفي في رواية الشعر، ويؤكد على الجانب النوعي فيها. فقد أنشد الرسول عليه الصلاة والسلام مع المسلمين في بناء مسجده؛ المسجد النبوي في المدينة

(١) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٠/٥٤١.

المنورة، وفي حفر الخندق، وفي غزوة خيبر، بما يبلور الاتجاه التربوي لرواية الشعر، ففي الأبيات التامة السابقة ما يروّح عن النفس، ويستنهض الهمّة، ويعزز الصلة بين المخلوق والخالق، بالثناء عليه وذكر نعمه وفضله، ثم الجهر بالرجاء في الثبات والنصر، وترتيب ذلك في بعض المقطوعات ما يحقق الالتزام بآداب الدعاء في تقديم الوسيلة (الثناء على الله بما هو أهله) على طلب الحاجة.

تالله لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وأراجيز ابن رواحة التي تقدم نموذج منها، أناشيد جماعية تمثل الشخصية الإسلامية، في التوكل على الله، ورصد عمل الدنيا لتثميره في الآخرة، ورفض الفساد والظلم بأشكاله. وغير خاف أن رواية هذه الأراجيز الهادفة عون للمسلم في تنفيذ التزامه لله أولاً، ثم للجماعة المسلمة ثانياً.

وللأراجيز بعد ذلك خاصية مميزة بإيقاعها المطاوع لتدفق الانفعال السريع، الذي يبعث الحماسة ويجدد النشاط ويحفز الهمم بلا ملل، وقد جرت عادة العرب في استعماله في الحرب لتحقيق ذلك[1].

ويرجح هذا الفهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب من عامر بن الأكوع أن ينشدهم من هذا الشعر في غزوة خيبر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعامر بن الأكوع خذ لنا من هناتك، فقال:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا[2]

ويستأنس لذلك في هذا المجال بحديث منقطع السند عن قتادة عن ابن مسعود

---

(١) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٦/١٦١.

(٢) البخاري: صحيح البخاري ١٠/٥٣٧ وقال الهيثمي عنه «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحسين بن أبي الحسين وهو ثقة (مجمع الزوائد ٨/١٢٩).

أن الرسول صلى الله عليه وسلم ربما تمثل بالبيت من الشعر مما كان في وقائع العرب»[1].

وأكثر تمثل الرسول صلى الله عليه وسلم وإنشاده من شعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، يدل على ذلك نظرة سريعة لما سبق من أمثلة، ولئن كان في هذا بيان، فإن شعر الدعوة الإسلامية هو الجانب النوعي للرواية في الإسلام، إذ أن له منزلة رفيعة حملت بعض الفقهاء الى عدّه واجب الحفظ والنقل، وخص ابن حزم الظاهري بالثناء شعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وصالح بن عبد القدوس لأنه «نعم العون على تنبيه النفس»[2] ولعل حديث عائشة رضي الله عنها يسدد ما ذهب إليه الباحث، فقد سئلت: «أكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر، قالت: كان يتمثل من شعر ابن رواحة»[3].

وشعر الدعوة أسلوب تعبيري يحمل غاية ثنائية في البلاغ وتشكيل الوجدان، إذا كان حيوياً في تناوله للتجارب وتعبيره عن قيمها، وهو قادر في صدوره عن هذا الورد على التطهير والتغيير شأن أي حركة في موكب العقيدة الإسلامية[4].

---

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، إلا أن قتادة لم يدرك ابن مسعود (مجمع الزوائد ٨/١٣٠).

(٢) ابن حزم الظاهري: رسالة العلوم ص ٦٥.

(٣) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٠/٥٤١.

(٤) سيد قطب: في التاريخ فكرة ومنهاج ص ٢٩.